

## الحلقة (٢٣)

موضوع هذه الحلقة تفسير الآيتين (١٩٥، ١٩٤) من سورة البقرة

يقول الله تبارك وتعالى {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}

### ◀ سبب نزول الآية:

وقد ذكرت أن أسباب النزول مبثوثة موجودة في كتب التفسير المتقدمة والمتأخرة، وهناك من العلماء من أفردوها بالتصنيف، ومن أوائل من أفردوها بالتصنيف الواحدي في كتابه أسباب النزول، وقد جمع جملة منها وليست كلها، الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه العجَاب في بيان الأسباب، ثم جاء الإمام السيوطي رحمه الله فآلف في ذلك كتاب لباب النقول في أسباب النزول، وهي كما قلت مبثوثة في الكتب، ولكن هذا العلم من أشرف علوم القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "العلم بالسبب يعين على فهم المسبب" فالعلم بأسباب النزول بلا شك يعين على فهم الآية واستنباط الأحكام منها، فهذا يدل على أهمية العناية بهذا العلم، ولذلك فنحن في بداية تفسير كل حلقة إذا وجدنا هناك سبب نزول ذكره العلماء؛ فإننا نذكره ومن ذلك ما جاء في تفسير هذه الآية {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ} الآية، اختلف في سبب نزولها على قولين:

• القول الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل هو وأصحابه معتمرين في ذي القعدة، ومعهم الهدى، فصدهم المشركون، فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع عنهم ثم يعود في العام المقبل، فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها بسلاح، ولا يخرج بأحد من أهل مكة، فلما كان العام المقبل، أقبل هو وأصحابه فدخلوها، فافتخر المشركون عليه إذ رده يوم الحديبية، فأقصه الله منهم وأدخله مكة في الشهر الذي رده فيه، فقال {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ}، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ومجاهد وعطاء وأبو العالية وقتادة وآخرون.

يعني معروف أيها الإخوة صلح الحديبية وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء يريد عمرة الحديبية أن هذا كان في ذي القعدة، صده المشركون وحصل ما حصل من الصلح، ومن بنود هذا الصلح أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السنة وأن يعود في العام القادم، وأن يدخل مكة بدون سلاح، وألا يخرج معه بأحد من الكفار، وأن يقيم فيها ثلاث ليال فقط، النبي صلى الله عليه وسلم رجع في ذي القعدة، إذ افتخر المشركون وهم قد افتخروا بأنهم قد رده عام الحديبية، فأنزل الله جل وعلا هذه الآية {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ}، أنه إن رددتموهم في ذي القعدة من تلك السنة فجاءوكم أيضاً في الشهر الحرام وهو نفسه شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم ذو القعدة وذو

الحجة ومحرم ورجب هذه الأربعة أشهر هي الأشهر الحرم، هذا قول لسبب نزول الآية.

• **القول الثاني:** أن مشركي العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ( **أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام؟ قال: نعم!** ) وأرادوا أن يفتروه في الشهر الحرام فيقاتلوه فيه، يعني أرادوا أن يقع الرسول صلى الله عليه وسلم في الإثم فيقاتلوه فيه، فنزلت هذه الآية.

فالمعنى: إن استحلوا منكم شيئاً في الشهر الحرام فاستحلوا منهم مثله، هذا هو قول الحسن، ورجحه الزجاج وغيره من المفسرين، يعني إن المشركين أرادوا أن يوقعوا النبي صلى الله عليه وسلم في الحرج، النبي صلى الله عليه وسلم سأله ( **هل تقاتل في الشهر الحرام؟ قال: لا** )، فأرادوا القتال في الشهر الحرام وأحبوا أن يوقعوا النبي صلى الله عليه وسلم في الإثم، الله جل وعلا أباح له، ليس معناه أنهم إذا قاتلوا في الشهر الحرام، معناه إن النبي صلى الله عليه وسلم سيتركهم، ويأتون ويذبحون المسلمين وينتصرون عليهم، لا! هذا غير صحيح، حتى لو قاتلوا في الشهر الحرام، الشهر الحرام بالشهر الحرام، يقاتلهم المسلمون ولو كانوا في الشهر الحرام، فالأشهر الحرم لا تحول بينهم وبين قتالهم، ولا تجعلها حاجزاً عن أن ينتصروا على هؤلاء، لأنهم لو تركوهم لتغلبوا عليهم، على كل حال يكون المعنى: **إن استحلوا منكم شيئاً في الشهر الحرام، فاستحلوا منهم مثله، وهذا في الحقيقة، أيضاً قول صحيح ومناسب.**

على القول الأول يكون المراد: الشهر الحرام الذي دخلتم فيه الحرم؛ بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه عام أول، على كل حال سواء على القول الأول أو القول الثاني كلاهما صحيح، يعني هم صدوهم عن ذي القعدة في تلك السنة، فدخلوا في ذي القعدة في السنة التي بعدها.

**والقول الثاني: أنهم أرادوا أن يجرؤهم ويوقعوهم في الإثم،** هذا لا إثم فيه، مادام أنهم الكفار قاتلوا في الشهر الحرام، والآن استحلوا مع أنهم يعظمون الأشهر الحرم؛ فلا ضير على المؤمنين أن يستحلوا هذا الشهر الحرام وأن يقاتلوا الكفار فيه ولا يمنعه من ذلك.

قوله تبارك وتعالى { **وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** } أي: أن الله اقتص لكم منهم في ذي القعدة، كما صدوكم في ذي القعدة، يعني في العام الذي قبله، وقال الزجاج: الشهر الحرام أي: قتال الشهر الحرام بالشهر الحرام، فأعلم الله تبارك وتعالى أن أمر هذه المحرمات لا تجوز للمسلمين إلا قصاصاً، يعني: كان في بداية الأمر مجرد إن قتلوا قوتلوا فقط، ولكن يذهب كثير من أهل العلم أن ذلك نُسَخَ بآية السيف، وأنهم يقاتلون في أي وقت، وأن الجيوش الإسلامية التي ذهبت للجهاد في سبيل الله ما قالوا: أننا نترك الأشهر الحرم وما نقاتل، لا! بل يقاتلون: متى دعت المصلحة واحتيج إلى ذلك فلا حرج.

بعد ذلك يقول الله تبارك وتعالى { **فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** }، قال ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، ونحن دائماً نتكئ في الحقيقة ونعتمد على قول ابن عباس، لأنه في الحقيقة أعلم الصحابة بالتفسير، قال رضي الله عنه: "من قاتلكم في الحرم

فقاتلوه - على كل حال، سواء في الحرم أو خارج الحرم - وإنما سمي المقابلة على الاعتداء اعتداءً، لأن صورة الفعلين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية، طبعاً ذكرت فيما سبق، أنه ليس المقصود {فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا} قد يقول قائل: أعوذ بالله دين الإسلام يؤيد العدوان ويشجع الاعتداء على الآخرين، نحن نقول: لا! إن شاء الله الأول معصية والثاني طاعة، لكن لما تشابه الحالان سمي أو أعطي اللفظ السابق: {فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا} ثم أيضاً {فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ} فلا يجوز أن يتجاوز في الحد وفي القدر، بل بمثل ما صنع، وهذا أسلوبٌ معروفٌ عند العرب.

قال الزجاج -والزجاج إذا قيل هو: أبو إسحاق إبراهيم بن السري، صاحب كتاب معاني القرآن وإعرابه، وهذا الكتاب يعتبر في الحقيقة من أنفس الكتب المتقدمة، الزجاج هو في القرن الذي عاش فيه الطبري، وقد توفي الزجاج سنة ٣١١هـ، وله كتاب معاني القرآن، وكتب معاني القرآن المطبوع الآن والمعروف بأربعة: معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للأخفش، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، ومعاني القرآن للنحاس، هذه الكتب التي هي بعنوان معاني القرآن وهي تعني ككتاب الزجاج بالأمر اللغوية والقراءات وذكر أساليب العرب ونحو ذلك-.

يقول الزجاج: والعرب تقول: ظلمني فلان فظلمته، ليس مقصوداً الظلم ولكن المقصود جازيته بظلمه، وجعل فلان علي فجعلت عليه، وسبق أن تكلمت عن هذا في الحلقة السابقة.

ثم بعد ذلك ختمت الآية بقول الله جل وعلا {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}: يا سبحان الله!! يتكرر الأمر بتقوى الله جل وعلا مابين آيتين أو آية، أيضاً بيان ثمرات وثمار أهل التقوى، هنا أن الله جلّ وعلا معهم، وهذه معية خاصة للمتقين أن الله يؤيدهم ويحفظهم، يسددهم متى ما حققوا مقام التقوى، ومقام التقوى كما ذكرت مقام عظيم، التقوى جنة يستجن بها العبد من المعاصي والذنوب، ولذلك قال العلماء: التقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد ذكرت في حلقات سابقة، أن السلف الصالح رضي الله عنهم روي عنهم أقوال في بعض أسس التقوى وقواعدها.

نذكر شيء منها:

قال علي رضي الله عنه التقوى: "هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة من الدنيا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

وقال عبد الله بن مسعود: "التقوى أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر".

وقال طلق بن حبيب: "التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله".

وقال الحسن البصري رحمه الله: "التقوى ألا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك".  
**الآية (١٩٥) من سورة البقرة:** وهي قوله تبارك وتعالى {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

❖ **اختلف في سبب نزول هذه الآية على قولين:**

• **القول الأول:** أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بالتجهز إلى مكة، قال ناس من الأعراب: يا رسول الله بماذا نتجهز؟ فوالله مالنا زاد ولا مال، فنزلت الآية، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

• **القول الثاني:** أن الأنصار كانوا ينفقون ويتصدقون فأصابتهم سنة (يعني: قحط وجهد) فأمسكوا فنزلت، قاله أبو جبريرة ابن الضحاك، فعلى كل حال هذا أو هذا، فالآية قد تكون نزلت في هذا ولا يمنع أن تنزل الآية لأسباب متعددة، وقد بَوَّبَ على هذا العلماء في علوم القرآن: أنه يتعدد السبب والنازل واحد، أو يتعدد النازل والسبب واحد وهذا له أمثله.

قوله تبارك وتعالى {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: في مرضاته، وابتغاء ما عنده جلّ وعلا، والسبيل في اللغة: هو الطريق، وهناك قول: بأنه الجهاد في سبيل الله، في سبيل الله: أي في الجهاد في سبيل الله، وإنما استعملت هذه الكلمة في الجهاد، لأنه السبيل الذي يقاتل فيه، وهو الجهاد في سبيل الله عز وجل. قوله تبارك وتعالى {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} التهلكة: بمعنى الهلاك، يعني: لا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك، ويقال هلك الرجل يهلك هلاكاً وهُلُكاً وتهلكة.

لماذا عبّر بالأيدي هنا، هل المراد بالأيدي فقط {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} فقط؟ لا! هو كما قال المبرد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قال: المراد بالأيدي الأنفس، يعني: ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، فعبر بالبعض عن الكل، وهذا شيء كثير في لغة العرب، أن يعبر بالجزء عن الكل وعن الكل بالجزء، مثل {جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} معروف أن الإنسان لا يمكن أن يدخل أصبعه في أذنه، وإنما أعلى الأصبع، وإنما المراد بيان عنادهم وتجبرهم وعدم رغبتهم في سماع الخير وسماع الدعوة إلى الله عز وجل، وهنا عبّر بالبعض عن الكل، يعني بالعكس، على كل حال هذا أسلوب من أساليب العرب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

لكن اختلف في المراد بالتهلكة هنا {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} اختلف في ذلك على أقوال:

• **القول الأول:** أنها ترك النفقة في سبيل الله، هذا من الإلقاء باليد إلى التهلكة (يا سبحان الله!! نعم الإنسان عندما يترك النفقة والبذل في سبيل الله عز وجل كان كأنه ضيّع نفسه وألقى بها إلى التهلكة وإلى الضياع وإلى الهلاك، (ما نقص مال من صدقة)، هذا قول حذيفة وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم.

• **القول الثاني:** أنها القعود عن الغزو شغلاً بالمال، قاله أبو أيوب الأنصاري، ولذلك كان يقول إنكم تحملون هذه الآية على غير محلها الصحيح، "إنها نزلت فينا معشر الأنصار لما استقر الأمر وانتشر

الإسلام قلنا لو رجعنا إلى مزارعنا وحوائطنا وكذا وكذا فنزلت هذه الآية: **{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}**.

• **القول الثالث:** أنها القنوط من رحمة الله، نسأل الله العافية، نعم هذا من التهلكة، عندما يقنط الإنسان من رحمة الله، ييأس من روح الله، هذا من التهلكة قاله البراء بن عازب و النعمان بن بشير.

• **القول الرابع:** أنها عذاب الله رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

وعلى كل حال الآية عامة في هذا وفي غيره، الإنسان يحذر أن يلقي بنفسه إلى التهلكة، فيدخل فيه جميع ذلك مسأخط الله، عذاب الله، غضب الله، الإنسان يحذر أن يلقي بنفسه في مثل هذه الأمور من قريب أو من بعيد.

قوله تبارك وتعالى **{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** في قوله تبارك وتعالى **{وَأَحْسِنُوا}** ثلاثة أقوال:

• **القول الأول:** أحسنوا الإنفاق، إما أن تحسن بالإنفاق، تقدم من مالك ما استطعت، وأيضاً تحسن النفقة، فتنفق الطيب ولا تنفق الرديء، تتصدق وأنت صحيحٌ شحيح، تتحسس أحوال الفقراء والمساكين، لأن بعض الناس هداهم الله يرى أن الزكاة -وهذه أمرها أعظم وأخطر، وأيضاً الصدقة- أنها حملٌ على الكتف يلقيه في أي مكان، هذا غير صحيح، ينبغي لك الحقيقة، من أنعم الله عليه بالمال وأراد الصدقة؛ أن يتحسس أحوال الفقراء والمساكين، ويبحث عنهم، وإذا كان يشق عليه وليس عنده وقت، فلو أعطاها جمعيات البر الخيرية الرسمية المعتمدة، فهم ولله الحمد يعرفون بيوتهم ويذهبون إليهم ويوصلون ما لديك، أما كون الإنسان يضع ماله في غير موضعه الصحيح، هذا فيه تهاون، وتساهل، فمن الإحسان في النفقة ألا تمتن بها، وتكون من الطيب ولا تكون من الرديء، أن تتحسس بها أحوال الفقراء والمساكين، وأيضاً الأقارب والأرحام أفضل من الأبعد، ونحو ذلك مما ذكره العلماء في آداب النفقة.

• **القول الثاني** **{وَأَحْسِنُوا}** أي: أحسنوا الظن بالله عز وجل، وهذا الإنسان مطالب به، وجاء في الحديث القدسي يقول الله عز وجل (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء) نعم يا أخي، ينبغي للمسلم أن يحسن الظن بالله تبارك وتعالى، وأسوأ الناس من يُسيء الظن بالله عز وجل، يسيء الظن أن الله لا يغفر له، أن الله لا يرحمه، أن الله لا ينصر الإسلام، أن الله يعاقبه أن الله يظلمه، أعوذ بالله، بعض الناس قد يتسخط وقد يعترض وهذا بلا شك سوء ظن بالله عز وجل **{الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ}** فينبغي للمسلم الحقيقة أن يستروح بآيات الرجاء وأحاديث الرجاء، وحسن الظن بالله جلّ وعلا وأنه أرحم الراحمين، أنه أرحم بعباده من أنفسهم، أنه أرحم بعباده من الأم بولدها ومن الوحش بصغارها، ينبغي للإنسان في الحقيقة أن يهتم بهذه المعاني العظيمة، وأعظمها وأجلها حسن الظن بالله تبارك وتعالى.

• **القول الثالث:** أن معناه: أدوا الفرائض، ولا شك أن أعظم الإحسان أن يحسن العبد إلى نفسه، كيف

أحسن إلى نفسي؟ أؤدي فرائض الله جلّ وعلا، أقوم بالفرائض أؤدي الحقوق، أؤدي ما علي من الواجبات، هذا هو الإحسان، أنت الآن تحسن إلى الناس، جزاك الله خير، تحسن بمالك، بعملك، بإشارتك الطيبة بمشورتك، بنصيحتك، هذا كله عمل طيب، لكن يا أخي أحسن إلى نفسك، أنقذ نفسك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} أنت مطالب يا أخي بأن تحسن إلى نفسك، أحسن إلى نفسك، وأعظم الإحسان إلى نفسك العمل الصالح، القيام بفرائض الله، أن تقيها نار جهنم، هذا هو الإحسان إلى نفسك.

ختم الآية {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وبلا شك أن الإحسان أمره عظيم وشأنه كبير، فمن ثواب المحسنين أن الله يحبهم، وهذه صفة لله تبارك وتعالى وهي صفة المحبة، فالله الله أيها الإخوة نحسن إلى أنفسنا ونحسن إلى غيرنا، وقد ثبت في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَلِیُحَدِّثْ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ وَلِیُرِّحْ ذَبِيحَتَهُ) الخ الحديث

ومرتبة الإحسان أعظم مراتب الدين، أعظم من الإسلام، وأعظم من الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) اللَّهُمَّ فاجعلنا من عبادك المحسنين ومن أوليائك المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وصلى اللَّهُمَّ وسلم على محمد وآله وصحبه.